ابراهيم العجلوني

# الانارة الفكرية في التراث العربي

قد يبدو متجنيا على الحقيقة من يجزم بأن تراثنا لم يدرس الى الآن تلك الدراسة التي يستحقها ، ذلك ان ما كتب عن التراث نقدا وتحليلا كثير . غير انه لا بد من الاعتراف بأننا قد فشلنا فشلا ذريعا في ادخال هذا التراث كعنصر رئيسي في ثقافتنا المعاصرة . وقد يتكىء هذا الراي على دواع كثيرة ، ولكن اهمها فيما رأى ، اننا رغم ثرثرتنا المتواصلة عن التراث ، لم نحاول ان نتثبت امرا واضحا تمام الوضوح ـ في هذا التراث على وجه الخصوص ـ وهو « قوة الانارة الفكرية الذاتية » فيه ، وهو امر لا اظن الكثيرين ادخلوه في اعتبارهم حينما تعرضوا لهذا التراث مسلطين عليه اضواء باهتة من النظريات الجاهزة والاراء المنتحلة .

ويقتضي المقام توضيح ما اريده بالانارة الذاتية ، حتى لا تظل مفهوما سائبا ككثير مما نتجرعه ولا نكاد نسيغه من اصطلاحات واسماء بلا مسميات .

ان اظهر ما يلفت اهتمامنا حين نقرأ تراثنا العربي . تلك الواقعية التي تشع منه . واعني بالواقعية الوقوف عند حدود الواقع فيما هو متعلق به ، واعتبار ما فوق ذلك من اختصاص أعلى ، ينهض به الوحي في اتجاه مواز ومهيمن في ذات الوقت ، فالحركة الذهنية للانسان العربي تنطلق من الواقع المحسوس لترتد الى الواقع المحسوس ، وهي معنية باقتناص الجزئيات بعيدا عن النزعة الفلسفية وان كانت ذات صلة رحمية بالتصور الديني ، واذا ما جئنا الى الشعر الجاهلي ، اسعفنا بشواهد وادلة كثيرة حول هذه النقطة . وان لنا ان نقرأ قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر ارخى سدوله
عليّ بانواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
واردف اعجازا ونآء بكلكل
الا ايها الليل الطويل الا انجلي
بصبح وما الاصباح منك بامثل
فيالك من ليل كان نجومه
بامراس كتان الى صم جندل

فهل نحن واجدون فيه غير صور حسية متلاحقة ، وغير كلمات معظمها ذات مدلول حسي واقعي ، بحيث يمكننا بقليل من الجهد تفكيك الصورة الشعرية الى اجزائها الاولية ؟

رموز ثانوية تعني القارىء وتحتاج الى هوامش وشروح دون ان تساوي ما يمكن ان تمنحه من ايحاء . الا ان ظاهرة ايجابية في اختيار الرمز التراثي جديرة بالتثمين هي ظاهرة التوجه الى الرمز السياسي التقدمي فبرزت اسماء ( ابي ذر الغفاري ) و ( عمار بن ياسر ) و(الحلاج) وغيرها .

* * *

بعد ان استعرضنا القنوات التراثية الثلاث التي تصب في عملية تكوين الادب العربي المعاصر الى جانب قنوات انسانية ومعاصرة اخرى ارى لا بد من التوقف عند مجمل التعامل مع التراث لنكون على بينة من عملية التكوين الادبي فان التراث العربي يتميز بامور :

١ ـ سعته وضخامته ، فان المخطوطات وحدها تبلغ الملايين .
٢ ـ تبعثره ، فانك لا تكاد تجد قطرا في العالم يخلو من هذه المخطوطات .
٣ ـ الجهل بمعظمه ، فنحن لا نملك فهارس دقيقة لهذه المخطوطات اضافة الى ان شطرا كبيرا منها يقبع في مكتبات خاصة مطمورة لا ترى النور وهي معرضة للتلف .
٤ ـ طغيان الجانب الادبي عليه ، وقد تكون هذا بالنسبة لنا الادباء مزية حسنة .

بعد عرض هذا الواقع يجب ان يشار الى ان عملية الاحياء لم يثمر لها بعد كما يجب وهي في الواقع لا يمكن ان تأخذ مداها ما لم تتضافر جهود اكثر من حكومة لانجاز خطة توضع لهذا الغرض الذي يجب ان يمر خلال مراحل الاختيار ثم النشر العلمي ثم التعريف والشرح والتبسيط احيانا .

ان هذا كله لا يتم ما لم تواكبه عملية ايجاد الناقد والنقد التراثيين اللذين يساهمان في هذه العمليات منذ بدئها .

ثم اننا نحتاج اشد الحاجة الى تأجيج الوعي التراثي بتوسيع دائرة القراء التراثيين . وانا لا اعني قطعا تربية الجيل الذي يجب ان يختص بالتراث بل اعني ان نحبب التراث الى جمهرة المثقفين الذين يكونون القاعدة التي سينبع منها الادباء .

ان هذا يحتاج الى تخطيط ينجز مهمة التشويق والتقريب وبالتالي اثارة الاهتمام .

اننا نعد بذلك القارىء الذي يستوعب النماذج الجيدة من التراث والذي يستجيب لتلاوين التراث في الادب المعاصر كما نعد بذلك الاديب الاصيل الذي يفيد من التراث كما يفيد من كل مصادر الثقافة . ولن يتم خلال ذلك التواصل بين التراث والادب المعاصر بل يتم التواصل الذي لا يقل عن ذلك اهمية هو التواصل بين الادب والقارىء .

ان هذه الخصيصة الهامة تجعل من تراثنـا كتاباً مفتوحا ، غير ملغز ، يسهل علينا بمجرد تجاوز الرداء اللغوي النفاذ الـى روحه ، وتمثل عظمته وقدرته على العطاء المستمر .

والواقعية اللغويـة ليست بالشيء القليل ، حين يراد فهم هذا التراث وبعثه حيـا في الحياة الفكرية والادبية المعاصرة ، فالفرق جد كبيـر بيـن ان تقف بيني وبين تراثي جُدر من التجريدات الذهنيـة والقوالب الفلسفية ، وبيـن ان ارتع في تراث لكل كلمة فيه واقعها المحسـوس .

لهذا لا نعدم الصواب حين نؤكد ان العقلية العربية تجريبية فـي اصولهـا اللغويـة ، ومن هنـا فهي قويـة قوة هائلة في الاستدلال الفكري، لانها تفيد من نزعتها الاستقرائية افادةقصوىالىجانبالوسائل الفكريـة الاخـرى .

وهناك خصـيصة اخرى لغوية يمكن ان نطـلق عليهـا اسم ـ الفعلية ـ او ـ الحركية ـ ذلك ان الجملة العربية تبدأ عادة بالفعل، والبدء بالفعل يعني فيمـا يعنيه اضفاء الاوليـة أي الاصول البعيـدة للغـة العرب على الحركة دون الاشياء .

فالوجود مُصمت بدون حركة ، وهو اقرب الى الموت ، ولسنـا بحاجة الى كبير ذكاء لنستطيع تصور الاسباب فرحة العربي الجاهلي ازاء لفتات الغزال ، وغرامه بحركاته ، وتشبيه حبيبته به ، اذ ان حركـة مـا في قلب السكون المرعب قد تكون ايناسا بالحياة في عالـم الصحراء الشاسـع بصمت ، المهلك بقسوة .

ولنقـرأ معا ابياتا للاعشى يصوّر فيها ثورا « يلجأ الى شجرة ارطى في منعرج رمال ، تعصف من حوله ريح شمالية هوجاء ،فتترك وجهه اغبر قاتما ، وقـد اكبّ الثور علـى اصل الشجرة بقرنيه ، يحفر فيهـا بيتا يؤويه في هذا الموضع المكشوف ، الذي تنهال رماله غيـر متماسكة ، فلمـا اضاء الصبح قام من وكره مبادرا ، وقد حان انطلاقه من حيث اقام ، فصبحته كلاب ( عوف بن ارقم ) الصائد عند شروق الشمس في الصباح المبكر ، وكان الصياد يقودهـا الى جنبه ، فلمـا رآه اطلقهـا عليه ، فانبعثت تتبعه كانهـا جماعـة النحل ، هيجهـا جامع العسل الذي يرتقي في طلبـه الجبال »

فثور الاعشى الذي شبه ناقته به في قوتها وسرعة جريها :

يلـوذ الى ارطـاة حقف تلفـه
خريق شمال ، تترك الوجه اقتمـا

مُكبا على روقيه ، يحفر عرقها
على ظهـر عُريـان الطريقـة أهيمـا

فلمـا اضاء الصبح قـام مبادرا
وحان انطلاق الشاه من حيث خيما

فصبّحه عند الشروق غديـــة
كلاب الفتى البكري عوف بن أرقما

فاطلق من مجنوبهـا فاتبعنـــه
كما هيّج السامي المعسل خشرمـا

فها هنا حركات متتابعة، ، عنيفة ، مليئة بالحياة ، القوة فيها هي القيمـة الكبرى . والنص الشعري هنـا درامي في صميمه ، وقد تمسك هنا بفكرة مؤداها ان ـ الدراما ـ عند العرب درامـا لغويـة تتحرك كمفردات في المسرح القصيـدة ، لا كاشخـاص بأدوار فـي المسرح البنـاء .

ونحن نرى ان من الخطأ الظن بأن شعـر العـرب لـم يعرف المسرحية كما هي عند اليونان لقصور فـي فهم العرب لهذا الفـن ، فاللغـة العربيـة في قدس اقداسهـا ديناميكية حركية درامية فعلية.

واذا اتينا الى القرآن الكريم وجدنا رافدا جديدا الى جانب الواقعيه اللغويـة والحركه الفعلية وهو « العقلانية الفكرية » والتـي يمكـن اعتبارهـا وجه العملة الاخر ، حيث يصح لنـا ارجاع السمة العقلانية في التراث العربي الى القرآن الكـريم مباشرة ، دون ان نعتبرها نتاج تلاقح بيـن الثقافتيـن العربية واليونانية ، كمـا يحلو لبعضهم أن يظـن فيمـا لا ينفع الظـن فيه ، فقبل ترجمة الثقافـة اليونانية وقبل منطق ارسطو الوافد ، كـان هناك المنطـق القرآنـي وهو منطق واقعي يفوق في شموله كل منطـق . فهـو اذ يحدد وسائل المعرفـة بقولـه تعالى :

« واللـه اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ، لعلم تشكرون » نراه يؤكـد ان الحواس على اهميتهـا لا تفي بالغرض، اذ هي أمر مشاع بين الانسان وغيرهمن الحيوانات ، انمـا مدار الامر على قوة الربط بيـن الاشياء، وهـي قوة اذا انحرفت في طرائق الاستدلال أصبح الناس « لهم قلوبلا يفقهون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئـك كالانعـام بل هم اضل » ..

ولان العمليـة الفكرية منطلقة من الواقع عائدة اليه ، فـان السمع والبصر والفؤاد .. « كل اولئك كان عنه مسئولا » ،اذ لا يمكن للفكـر ان يكـون تهويمـا بلا مردود عملي ، وقد نعتبـر هذا اصـلا للسلوكيـة الخلقية التي امتاز بها تاريخنـا انحضاري .

وهناك الى جانب هذا كله ضرب من المنطق القرآني فريد . وهو في باب الافحام يبعث على العجب ، ففي قوله تعالى « أم خلقوا من غير شيء .. أم هم الخالقون ؟ » نتيجتان نقعـان في باب الاستحالة، وهمـا تطرحـان طرحا مباشرا مشكلـة الخلق ، وتسدان بنفس الوقت طرق الاجابة الخاطئة ، فلا يبقى الا الاذعان للحـق .. وهـو منطـق فريـد معجز حقـا ..

وهكذا يتضح ما قصدته بقوة الانارة الذاتية في التراث العربـي في اصوله ، فهـو تراث واقعي عقلاني حركي اولا ، وهو يستعصيعلى اساليب الدراسة على ضوء النظريات الجاهزة ثانيا ، الامر الـذي نراه بحاجـة الى قليل من الابانة ،وعلى وجه التحديد فيمـا يتعلق بالذوق الفنـي الادبي الواجب توفره فيدارسـي التراث ..

ان من يترك للعالم او لجزء منه امر اختيار ذوقه الشخصي ،لا يحتاج الى ملكـات غير ملكة التقليـد النامية عند القرود . اما مـن يرسم خطته بنفسه ـ كما يقول ستيوارت مل في كتابه القيم « بحث في الحرية » ـ فانه يستخدم جميع ملكاتـه .

وليس الذوق الفني او الحس الجمالي وليد صدفة ، ولا هـو الهامـا يتأتى من السماء انه معاناة طويلة ووقوف متأمل ازاء جزئيات العمل الفني ، مصحوب بنبض وجودي ، اي ان تتولد لدى المتذوق ـ خبرة فنية ذاتية ـ يلتفت بمقتضاها الى العمل الفني كحقيقة تمـارس لا شـيء يوصف .

فاذا سحبنا هذه النظرية على الذوق الشعري المفترض وجودهفي كل من يتعرض لنص شعري بنقد او تقريظ ، تبين لنا مدى الجهـد اللازم في معايشة النصوص باجوائها وايحاءاتها ودلالاتها المختلفـة ، واتضح ان المقدرة الفنية الواجب توفرهـا ليست الا حصيلة حصار مستمر لمجموعات النصوص الادبيـة ، ابتداء بامرىء القيس والاعشى والنابغة ، وانتهاء بالشابي وعلي محمود طه شعراً ، وبدءا بعبدالحميد الكاتب واختتامـا بنجيب محفوظ نثرا .. وهكذا فـي كل مضمار فني.

ان جمال شيء مـا ، قوامه اتساق داخلي بين اجزائهوعناصره، وكمـا يقول الدكتور زكي نجيب محمود « فـان جمال القصيدة مـن

الشعر هو آخر الامر نسق باطني فيها ينتظم أطرافها ودقائقها ، وهكذا قل في جمال اللوحة الفنية وجمال التمثال وغير ذلك » ..

وهكذا ، فان اولى مكونات الذوق الشعري العربي ، وهو امر لا مفر منه للناقد المعاصر ، تكمن في القدرة على فهم التراث ، وتمثل قيمه الفنية بعمق واصالة ، والوقوف بصبر في مواجهة نصوصه ، وهضم معطياته فكرا وفنا وخلقا .

وتصدق ها هنا فكرة اليوت الذي يرى أن اكثر الشعراء معاصرة وقدرة على التجديد هم الذين نسمع فيما يقولون اصوات الاجداد. وهي فكرة الى النقد اقرب منها الى الشعر ، ذلك ان الذوق محمول على نهر التاريخ، وكل حقبة تعطيه من نكهتها ولونها الخاص بها. فاذا تتبعنا مجرى هذا النهر ،ودرسنا مناخ كل بيئة اخترقها عبر العصور، استطعنا معرفة خصائص كل لون من هذه الالوان ، وكل نكهة ، وكل عبير واستطعنا ونحن على حافة المصب الكبير أن نحيط بكل الابعاد الممكنة ، والتي هي القيم الفنية المتحصلة والمحتملة .نحن اذن نخطىء كثيرا حينما نحاول اضاءة نص ادبي ـ قديما كان او حديثا ـ بقوة النظريات المعروفة لدينا ، والتي غالبا ما تكون مستمدة من بيئات مغايرة،ذات تاريخوحضارة مغايرين . ولقد يحسنآن نستمد زيت مصابيحنا من نسغ النص ذاته . ففهم المتنبي مثلا لا يكون على ضوء فلسفة القوة عند نيتشه . وكذلك فهم ابي العلاء لا يكون على ضوء تشاؤميات شوبنهور ، بل يكون هذا وذاك مستمدا من النصوص الادبية لكليهما ..

وقد يستتبع هذا الفن بحد استخلاص النظريات من الوقائع الادبية لا العكس ، على ما في ذلك من ( تجريب ) تستصعبه اذواق من يخافون مواجهة التراث الا وقد لفوا انفسهم باسمال من هنا وهناك ، وبمزق من نظريات وتراقيع من مصطلحات ..

ولقد اتيح لي آن ابحث قليلا عن نصوص تضيء لنا عناصر ما قد نسميه « نظرية نقدية عربية » فكانت هذه النصوص التي نستخلص منها اسس هذه النظرية . قال تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون، الم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » وفيقوله جل وعلا اشارة الى عنصري الخيال والصدق .

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما الشعر كلام من كلام العرب ، تتكلم به في بواديها ، وتسل به الضغائن من بينها ». وقال ايضا : « انما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق منه الحق فهو حسن، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه .»

وفي ذلك اشارة الى عناصر الجمال والاخلاق والصنعة .

● سئل سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن اسباب تقديمه لامرىء القيس فقال :

« لانه احسنهم نادرة وأسبقهم بادرة ، وانه لم يقل لرغبة او لرهبة » . وفي ذلك اشارة الى عنصري الجدة والصدق .

● سئل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن اسباب اعجابه بزهير فقال :

« لانه لا يتتبع الحوشي ولا يعاظل في المنطق » وهنا الاشارةواضحة الى البساطة والوضوح .

● يقول الفارابي « الاقاويل الشعرية هي التي تؤلف منها اشياء ، شانها ان تخيل في الامر الذي فيه المخاطبة ـ اي القصيدة ـ خيالا ما ، او شيئا افضل او احسن ، اما جمالا او قبحا ، او جلالة او هوانا ، او غير ذلك مما يشاكل هذه . « ويقول ايضا « وانما تستعمل الاقاويل الشعرية في مخاطبة انسانيستنهض لفعل شيء ما ».

وهنا يتبين عنصرا (١) المثل (٢) الاستنهاض. ومما تقدم يتضح ان النظرية النقدية التي نطمح الى استخلاصها تقوم على ما يلي :

١ ـ لكي تتم للادب صفته يجب أن يعتمد على عنصري الخيال والجمال .

٢ ـ لكي يتم للادب اثره ، وقوة جذبه الى قيم معينة يجب ان يعتمد على :

أ ـ القدرة الفائقة على رسم النموذج ( المثل )

ب ـ الصدق مع الواقع ، اي ان تكون الحقيقة نصب عيني الاديبدائما.

جـ ـ الصدق مع الذات او ما يسمى بالصدق الفني .

٣ ـ الوضوح والبساطة ركنان اساسيان ، لا يقوم بدونهما ادب ناجح ، اذ ينعدم بدونهما الاتصال بين المبدع والمتلقي .

٤ ـ الادب قوة محركة ، تستدعي التزاما ، وتوحي بالتغيير .

ومع اعترافي بقصور هذه الالتفاتة عن استيعاب الفكرة التي ارمي اليها ، الا ان هذا لا يلغي ما ذكرته من ان استنطاق النصوص هو حجر الزاوية في فهم التراث العربي .

ونحن على اي حال مدعوون ـ اذا اردنا فهم هذا التراث ـ الى استخراج زيت مصابيحنا ـ كما سبق وذكرت ـ من صميمه ، دون اللجوء الى اسقاطات هي الى العبث اقرب منها الى الجدية والوضوح . فاذا نظرنا الى تراثنا مثل هذه النظرة ، سهل علينا جعله قوة مستمرة في حاضرنا الراهن ، واستوت لنا شخصيتنا الحضارية ، غير ان ذلك يتطلب قبل كل شيء انصرافنا عن الاستقرار في غيبوبة ( الاتباع الحضاري ) التي نعاني منها ، كما يتطلب عزما نافذا وصبرا جميلا في البحث ، وادبا جما في التناول.

وانه ليحزنني ان تذهب جهود كثير من مثقفينا سدى في تصيد افرازات الآخرين في حين ليس بيننا وبين كنوز تراثنا العظيم سوى خطوة .. او خطوتين .

عمان — ابراهيم خليل النجلوني